طقوس قبل- إسلامية في جنوب الجزيرة العربية

إعادة اكتشاف دين السبئيين في طقوس إسلامية مُعاصرة من تِهامة

فيرنِـر داوم[١]

ترجمة: محمد علي عطبوش[٢]

ما يزال شطرا اليمن يمثلان ذلك الجزء من الشرق الأوسط المحتفظ بوضوح بعادات وتقاليد شبه الجزيرة العربية القديمة. بتلالها المهيبة، وصحاريها الجرداء وشطآنها المتقدة على البحر الأحمر، وبرجال القبائل الإباء بجنابيهم (خناجرهم) التقليدية، والقصور والمنازل الخلابة على قمم الجبال، وأعمدة معبد سبأ على رمالها المنسية، جميعها لا يمكن إلا أن تعكس صورة خالدة عن ماضي الجزيرة العربية. يبدو للكثيرين أن المرتفعات (سلسلة الجبال المركزية الممتدة لحوالي ٥٠ ميلاً شمال عدن بعيداً نحو السعودية) هي الجزء الأكثر قِدماً في اليمن. ومع ذلك، من وجهة نظر أنثروبولوجية وكذلك من وجهة نظر إثنولوجية، يمكن تتبع العديد من السمات القديمة فقط في الجزء الغربي (الشريط الساحلي من تهامة على طول البحر الأحمر)، في الصحراء الشرقية وفي جنوب اليمن، خاصة في حضرموت. يمكنني القول إن ذلك ليس بسبب

---

[١] - د. فيرنِر داوم (Werner Daum) هو مستشرق ودبلوماسي ألماني، ولد في ١٤ يوليو ١٩٤٣، عمل سفيراً لألمانيا في كل من ألبانيا والكويت واليمن الجنوبي سابقاً والسودان، وهو أستاذ متخصص في الدراسات الإسلامية والحضارات القديمة وأصول القرآن وبدايات العصر الإسلامي وتاريخ الجزيرة العربية القديم، وكان زميلاً أكاديمياً في جامعة هارفرد، وله حوالي اثنا عشر مؤلفاً وعديد من المقالات، منها عن تاريخ اليمن وتراثها وعاداتها. ومقالته هذه نشرها عام ١٩٨٧ بعنوان "A pre-Islamic rite in South Arabia " في مجلة الجمعية الآسيوية الملكية

[٢] - باحث وكاتب يمني شاب، يعمل على الدكتوراه بجامعة البحر الأسود في جورجيا، مهتم بتاريخ اليمن القديم ونقوشه، ودراسة الفولكلور اليمني، وقد أهدى ترجمة العمل الى مجلة آداب الحديدة ومدير تحريرها فلزم الشكر والتقدير له.

الزيود الذين قضوا على تقديس الأولياء وعلى "الخرافات" الشعبية الأخرى، ولكن ربما كان ذلك بسبب الهجرات القادمة من شمال الجزيرة العربية إلى هذا الجزء من اليمن.

في تهامة الوسطى، على بعد حوالي ٧٠ كم شمال شرق (عن طريق) ميناء الحديدة، تقع مدينة بـاجِـل على الطريق المؤدي إلى صنعاء. قادماً من صنعاء مباشرة بعد تجاوز الجبال، تقابلك "باجِـل" وهي أول مستوطنة كبيرة في سهل تهامة. وبعد حوالي ٤ كم. جنوب غرب باجل، يقع قبر ولي شهير بالقرب من قرية دير الخدامة. ويسمى هذا الولي "الشمسي" ويعد وليّ باجل أو قبيلة القُحْرا الكبيرة عموماً. ويعد الحج السنوي (الزيارة) إلى هذا القبر حدثاً عظيماً، وما يزال يعد كذلك عند كثيرين. الطقوس المرتبطة بهذه الزيارة غريبة جداً. تحت غطاء رسمي رقيق من الدين الإسلامي، تكمن إشارات واضحة إلى الدين القديم الذي حلّت تعاليم الرسول محله. وهذه الظاهرة بالطبع ليست الحالة الوحيدة في اليمن، فقد سجل كل من هارولد إنجرامس Harold Ingrams وروبرت سيرجنت R.B. Serjeant وآخرون مثل هذه العادات.

إن ما يجعل زيارة الشمسي، فريدة من نوعها حقاً هو القصة المرتبطة بها. هذه الأسطورة مفصّلة ودقيقة جدًا لدرجة أنها تتيح لنا رؤية استثنائية للبنية الأصلية لدين ما قبل الإسلام في جنوب الجزيرة العربية. وكل ذلك مطلوب، حيث أننا لا نملك أساطير مسجلة عن السبئيين القدماء. لدينا آلاف النقوش لكن معظمها نقوش نذرية رسمية تشير إلى مجمع الآلهة دون توضيح للروابط فيما بينها. قبل أن أخوض في طقوس وأسطورة الشمسي، يسرني أن أعبر عن عميق امتناني عن نقاشي مع فرانسين ستون Francine Stone عن الحائط والزيارة في دراساتها القيمة عن تهامة (١٩٨٥). أولاً، ومن خلال الفصل

المتعلق بهذا الموضوع من كتابها، أدركتُ الكنز البحثي بشأن دير الخدامة، ثانيًاً، كانت البيانات التي جمعتها هي ما مكنني من طرح السؤال "الصحيح" للمواطنين المحليين، الذين كانوا بسبب الخوف الديني، مترددين للغاية من نقل معتقداتهم إلى شخص غريب. لو لم أحضر إلى المكان مزودًاً بالمعلومات التي جَمَعتها فرانسين ستون في ذهني، لما استطعت جمع القصة الكاملة والتي سيتم عرضها الآن.

يقع ضريح الولي وسط مقبرة واسعة. مرصوفة أرضها بالكامل بحصىً كبيرة. ويتم رصف القبور الصغيرة من هذه الحصى، وقد بُنيت حيطان قبة الشمسي منها. وتعد أشجار القرض والشجيرات التي تنمو في هذه المنطقة بعد جفافها مناسبة جدًا، لتكوين المصبّات المائية التقليدية في جنوب الجزيرة العربية. يبدو أن هذه النباتات قد نجت من العبث بفضل قدسية المكان وهيبته في نفوس السكان. عندما سألت عن وجود مجرىً مائي في هذا المكان كان الجواب بالنفي، ولكن قيل لي لاحقاً أنه قد وجد بالفعل، منذ قرون عديدة كان ثمة مَصَبّ كبير في الوادي (عرض الوادي حوالي ٢٠٠ متر) والذي يجري الآن عدة كيلومترات غرباً قادماً من جنوب شرق باجل، على مدى الطريق من دار الخدامة إلى باجل نحو الجبال. ثم أخيراً قيل لي ان اسم المجرى المائي هو "شِعب الجُـرَيـنـيّة". كلمة شِعب حرفياً تعني شَـقّ جبليّ، وتُستخدم لوصف تضاريس مشابهة جدا عند ضريح النبي هود في حضرموت. عندما كنت في موقع الوليّ الشمسي نهاية مايو ١٩٨٦، وهو موسم الأمطار في تهامة، كان المصب المجاور لي، على حافة المجرى المائي السابق، مبلولاً بماء المطر، وكان واضحاً أنه لم تمر عليه سوى أيام قليلة. وأول حقيقة مفاجئة كانت أن ضريح الولي أقيم في منتصف ممر مائي كبير، وليس بقرب قرية دير الخدامة،

التي تقع على بعد حوالي ١٠٠ متر خارج الوادي، وعلى بعد ٢٠٠ متر عن الضريح. كان من الغريب أن يقع هذا المزار وسط مَصبّ مائي سابق، ولابد أنه قد وضع في هذا المكان عن عمد. البناء مكعب من دون زوايا، ولكن الجدران كانت باتجاه الزوايا الأربع، يتكون الجدار من حائط خارجي تعلوه الشقوق. وفي الداخل، في الوسط، يوجد هيكل رباعي الأضلاع به حُجرة صغيرة (Cella) بالداخل. وهذا الهيكل، الذي سأسميه "كعبة" للتسهيل، كانت به نقوش و"برج" مركزي. يحتوي الحائط الخارجي على مدخلين، أحدهما على الجنوب، والآخر على الجهة الغربية. وتقع القبلة على الجانب الداخلي من الحائط الشمالي، ويقابلها ما يشبه الباب الصغير يؤدي على الكعبة. الحجرة التي داخل الكعبة ضيقة للغاية، المِحراب على الحائط الجنوبي مغطىً بالشمع، قيل بسبب وضع الشموع فيه أثناء "الزيارة".

وقيل إن احتفال "الزيارة" يتم على النحو التالي: يدخل الحجّاج من الجنوب، ويطوفون حول الكعبة عكس اتجاه عقارب الساعة (كما يفعل الحجاج في مكة)، ويأخذون حفنة تراب من داخل الكعبة (وهذا التراب يُرمى أو يُحتفظ به أحياناً) ثم يغادرون المكان من المدخل الغربي. ويُقال إن القُبَتين الصغيرتين خارج الحائط من جهتهِ الشمالية كانتا قبرين لأبنيّ الوليّ. قرية دير الخدامة الصغيرة هي بيت "حارس" الضريح وعائلته الكبيرة. واسم المكان (دير الخدامة) بمعنى "مكان الخِدمة" يعبر عن هذه العلاقة. يسمى الحارس "قَيِّـم". ولعلنا نشير إلى أن تسميته في المناطق الغربية من جنوب اليمن "قَـيُوم"، وفي أماكن أخرى من تهامة يسمى "مَنصَب" وفي حضرموت "منصب". كلمة منصب معروفة بمعنى قيّم. واسمه "عثمان إبراهيم قيّم" والده

كان يدعى "إبراهيم محمد سِرَين"، وكان لقب عائلتهم هو "سِرَين" دائماً، على حد زعمه. سنحاول شرح الكلمة في نهاية هذه الورقة.

الجزء الأكثر إثارة من طقوس "الزيارة" يحدث في القرية، وليس في الوادي نفسه. الوصف التالي حسب كلام عائلة القيّم. ثم أكده لي القيم ذلك، من وقت لآخر وعلى مضض، فلم يروقه ما قالته عائلته لي، ولولا كرم الضيافة العربية لكان قد طردني بالتأكيد. أخبرتني عائلته أنه يخشى انتقام الوادي إذا ما كشف عن أسراره لشخصٍ غريب. فلا يسعني إلا تحذير الأجانب المقيمين في اليمن من أن يدفعهم الفضول إلى الاستكشاف هنا، فهذا من شأنه أن يقضي على هذه الزهرة الثمينة والنادرة، والتي تتوجس منها السلطات حسبما سمعت. يتألف الاحتفال الرئيسي من إقامة عمودين خشبيين، أحدهما أطول من الآخر قليلاً (ذكرت فرانسين ستون أن طولهما ٧ أو ٨ أمتار) ويبدأ تركيبهما من المساء، بعد غروب الشمس. ثم يتم غسل العمودين بالماء أولاً، ثم يضاف الحناء. وكل عمود يسمى "سِرو" (بالتالي فإن اسم العائلة سالفة الذكر "سِرَين" هو مثنى سِرو) الأطول يمثل الولي الشمسي، حسبما قيل لي دون تردد عندما سألت، والأقصر هو أنثى. وعندما أصريت على السؤال ما إن كانت هذه زوجة الشمسي، كانت الإجابة أنه لم يتزوج قطّ. يزدان العمودين ببعض القماش، وقيل بصراحة أن هذا يمثل ثياب الشمسي، وبالمثل العمود الآخر. وعندما يتم نصب العمودين فأن الأطفال يتسلقونهما، وعادة يتعلقون بالحبال التي تثبت العمودين، ثم ينزلقون للأسفل ويعودون صعوداً وهكذا.. لم أتوقع تفسيراً عندما سألت عن معنى هذه "اللعبة" ولكن قيل لي أنها تَضمَن رزقاً بالذرية. إذا لعب الأطفال بحماس، فسوف يلد العديد من الأولاد في العام القادم. في الماضي، وحالياً بشكل أقل، كان القيم يقدم "ذبيحة" للحجاج؛ وكان الحجاج أنفسهم يجلبون

الثيران والمواشي. وتذبح الحيوانات "للفقراء ولله". ومن الواضح أن هذه الوليمة الجماعية كانت جزءاً مهماً من الطقوس.

سأروي الآن قصة الشمسي. وهناك روايتان لها مختلفتان قليلاً، إحداهما رواها القيم وعائلته، والثانية رواها "شيخ مشايخ قبيلة القُحْرا" في باجل وأعيانها الذين قابلتهم. كلتا الروايتين تمت صياغتهما بشكل غير رسمي، وبالتأكيد كانت عربيتهم ركيكة للغاية. وبشكل مخالف بوضوح لما أوردته في كتابي (*Märchen aus dem Jemen*). لذا سأقتصر على محتوى الرواية التي عندهم. ذكرت كلتا النسختين أن اسم البطل لم يكن "الشمسي الأهدل" (حسب كلام فرنسين ستون) ولكن ببساطة: الشمسي.

تقول الأسطورة كما رواها القيّم: أن الشمسي جاء من بعيد، من الغرب، من الناحية الأخرى من البحر الأحمر، من الحبشة. كانت لديه عين واحدة فقط، في منتصف جبهته، لكن هذه العين أقوى من عيني وعينك. يستطيع الرؤية بها في أنحاء الجبال إلى حضرموت، لا يخفى عليه شيء. وفي ذلك العصر عاش شيطان عظيم في الجبال هنا (مُشيراً إلى اتجاه باجل والجبال المطلة عليها، أي اتجاه المجرى المائي) بعيداً، على بعد ست ساعات بالسيارة، وسط الجبال. واستخدم القيم لوصف الشيطان كلمة (جني، مارد، شيطان). وعندما سألته ما إذا كان اسم الشيطان "عفريت" (وأنا أعرف هذه الكلمة من خلال كتابي *Märchen*)، لكن القيم نفى هذا قاطعاً، لدرجة أن اسم الشيطان بدا واضحاً تماماً عنده. في كل عام يطلب "العفريت" من أهالي دير الخدامة عروساً عذراء. وأنا أعرف من خلال كتابي (*Märchen*) أن ذلك كان بغرض ضمان الحصول على الماء (الفيضان) في الوادي. سألت عن سبب هذا النذر، ما إذا كان الشيطان يمنع عنهم الماء لولاه، ولكن قيل لي أن الأمر ليس كذلك؛ بل إنه

يطلب الفتاة لأنه خبيث. كانت العذراء ترتدي ملابس العروس، وتوضع على هودج الجمل (يسمى مَحمَل) وبعد الغروب يتم إرسال الجمل إلى الجبل. ويأتي الشيطان من مسكنه للقائها وقتل الفتاة. ولكن في إحدى السنوات رأى الشمسي معاناة الناس وفِعل الشيطان المروع، ذهب خلف الفتاة، بقرب القرية (حيث يقع الضريح اليوم) فالتقى الشمسي بالشيطان، وقطع رأسه بسيفه وحرر القرية من سطوته. وجثة الشيطان الملقاة هناك، أخذت ورميت بعيداً. وعاش الشمسي لبقية حياته في القرية كضيف شرف (جار).

ورداً على سؤالي، قيل لي أنه لم يتزوج الفتاة المحررة، بل لم يتزوج إطلاقاً. لكن لديه ثلاثة أطفال (كيف جاءوا دون زواج؟ أمر مسكوت عنه). الحائطان الصغيران، خارج الحائط الشمالي من الضريح، هما ولداه الكبيران، والثالث هو الولد الأصغر، وهو جد القيّم الحالي. وقد نشأ الضريح والاحتفال على النحو التالي: بعد فترة معينة من وفاته، ظهر الشمسي في منام أحد أفراد عائلة السيد الأهدل المتعلمة وطلب منه بناء الجدار وبدء الزيارة. ويبدو الطابع الإسلامي هنا جلياً للغاية.

والآن نأتي على ما يمكن تسميته النسخة الأكثر دناسة، والتي يرويها الشيخ وحاشيته. جاء الولي في الأصل من منطقة "المَرَعوِي"، وهي بلدة صغيرة تقع على بعد ٢٠ كم جنوب غرب باجل، وهو موضع بيت الأهدل السادة، وكان اسمه عبد الرحمن بن أبي بكر، ولقبه الشمسي، وله لقب آخر هو "الأعور". ذهب إلى دار الخدامة حيث أقام عندهم كـ"جار" (شخص مَحمي). وقد كانت هذه البلدة فيما مضى تسمى "الجَـثَّـه". وفي كل عام "في رأس السنة"

(وهنا يظهر التأثير العبراني: رُوش هَاشَنَاه، بمعنى نهاية العام)[١] يجهز أهالي الجَـثَّـه عروساً للشيطان، (المارد. أما كلمة عفريت فتعرف حصراً كمصطلح عام للجن القرآني). وعاش هذا الشيطان في بئر القرية التي في خارج أسوار المدينة، ليست بعيدة كثيراً. كانت الفتاة ترتدي ملابس العُرس، وأُحضرت بعد غروب الشمس إلى البئر ووضعها على حافة البئر. وفي الليل خرج الشيطان من الماء واستولى على الفتاة وأخذها معه للأسفل. ومع بداية السنة الأولى افتقدها الشمسي وذهب يطلبها. في العالم التالي اختبأ الشمسي بجانب البئر، وعندما خرج الشيطان من الماء وخرج من البئر استقبله الشمسي وقتله بحربته. كان للشمسي عدة أبناء لكنه لم يتزوج قط، وكان الأكبر يدعى "حسن بن عبد الرحمن" ويحمل لقب "مفتي الديار اليمنية". ومن نسله جاءت قبيلة "أولاد حسن" (الحسنية) في قرية القنانية. والقُبَّتان التان خلف الولي هما ولداه الأكبران. واحتفالاً بهذا العمل البطولي، يقام احتفال سنوي في اليوم الذي حدثت فيه الحادثة، وفي الموضع التي حدثت فيه. وبمناسبة هذه الزيارة "يذبح أهل القرية أثوار فالضيوف يأكلوا منهم".

الآن أظن من المفيد أن نلخص القصتين والطقوس. ولعله من الجائز أن أضمن ملاحظات من كتابي (*Märchen*).

يعد العفريت شيطاناً مائياً، يعيش في الجبال، في الاتجاه الذي يبدأ منه الوادي، حيث تُفرغ السحاب الموسمية حمولتها، وكانت المياه أساس نشوء الحضارات اليمنية القديمة، الواقعة في الصحراء الشرقية، بعيداً عن الجبال،

[١] رُوش هَشَنَه ראש השנה بمعنى رأس السنة، هو عيد يهودي يحتفل اليهود فيه برأس السنة العبرية، ويعتبر هذا العيد يوم الدين الذي يحاكم الإنسان فيه عن السنة الماضية كما يذكر بداية أيام التوبة العشرة التي تنتهي في يوم كيبور יום כיפור. ويصادف روش هشنه في اليومين الأول والثاني من شهر تشريه من التقويم اليهودي، انظر سفر اللاويين ٢٣. (المترجم)

فتروى الحقول بالمياه المتدفقة من المرتفعات. في نسخة الشيخ كان العفريت "إله" بئر واقع وسط الوادي.

وفي كتابي، عرضت صورة العفريت بوضوح: كـإله خارق في الغيوم المظلمة والعاصفة والمطيرة وفي الوديان، أكثر ارتفاعاً من السماء الشاهقة، يأتي على الناس كالسحاب الأسود، في غروب الشمس ظهرت سحابة سوداء، سوداء من الدخان (=عفريت)، هو عملاق يأتي مثل الغيوم السوداء الملبّدة، ثم يتحول إلى شكل بشري، بطول عشرة رجال، وعندما ينام يُطلق ضرطة مدوية لدرجة أن القلعة كلها تهتز وتهتز أشجار الغابة.

يتم تقديم العروس لهذا الشيطان، مرة في العام. وتتقاطع العديد من الخرافات التي جمعتها في كتابي مع قصة الشمسي، بحيث نفهم أن ذلك كان يتم لضمان الحصول على مياه الوادي، وإذا لم تقدم الفتاة للعفريت فسوف يقوم بحبس المياه. قتلُ الشيطان الأزلي المظلم، على يد شاب غريب نوراني يؤمّن الماء، هي ثيمة مكررة بصراحة في العديد من الخرافات التي جمعتها. ثم يتزوج الشاب الغريب بالفتاة (التي صادف أنها ابنة حاكم القرية) وبذلك يستقر في نفس القرية، وبعد موت السلطان يصبح هو الحاكم الجديد وتكون الأسرة الحاكمة من نسله.

هذا يفسر طقوس الشمسي أكثر من أي كلمات قالها القيّم: بعد أن قتل الوحش، تزوج الشمسي في القرية (يتم تمثيل ذلك من خلال عمود الشمسي وعمود الأنثى) ومعاملتهم للعمودين تتفق تماماً مع طريقة معاملة العروسين في اليمن: الاستحمام بالماء ووضع الحناء، وكذلك الوليمة الضرورية، (كما أذكر دائماً في كتابي)، وتقدم هذه الوليمة ضمن طقوس الشمسي من قِبل القيم

وعائلته، في كتابي هي وليمة زواج، يقدمها حاكم القرية بمناسبة زواج ابنته. والغرض من هذه الطقوس هو بالطبع خصوبة الأرض (من خلال المياه المحررة) وخصوبة للأسرة (من خلال تسلق الأطفال للعمودين).

وقبل مواصلة السرد، لابد من شرح دلالة تاريخ "في راس السنة". لم يكن معنى هذا التعبير واضحاً بالنسبة لي، فناقشته باستفاضة مع الشيخ وحاشيته ورعيته. في البداية أكد الشيخ بوضوح أن معناه "نهاية العام"، ولكن هذا يعني الوقت اللاحق لنهاية السنة مباشرة "عندما تنتهي السنة وينتهي ختامها". لم يعترف بكلمات كثيرة أن هذه هي بداية العام جديد، ولكن في الواقع هذا هو المقصود. ثم قيل لي أن هذه ليست السنة الإسلامية، بل "السنة الزراعية". كانت "النهاية" بعد موسم الخريف (نهاية الحصاد الرئيسي تليها فترة راحة).

ويتم تمثيل ذلك على النحو التالي: موسم الأمطار الرئيسي هو "الصيف"، وهما شهران كنّا حينها في منتصفهما (كنا في نهاية مايو). ونهاية العام سيكون بعد حوالي شهرين إلى ثلاثة أشهر ونصف. إذا ترجمنا هذه التواريخ إلى تقويمنا، فهي تعني "من بداية إلى منتصف سبتمبر". ثم قيل إن قتل الشيطان حدث في ليلة اكتمال القمر، بالتالي يفضل الاحتفال بالذكرى السنوية في تلك الليلة، أول ليلة تلي نهاية العام. "كانت هذه هي القاعدة، والجميع يعلمها". إنما الزيارة نفسها فيجوز أن تُقام بحسب أي اعتبارات، في أي وقتٍ مواتٍ، وفي أي حالة طقس مناسبة، ولكن بالضرورة يوم الخميس أو الجمعة لأنها أيام عطلة، وإن أمكن يفضل عند اكتمال القمر، ويمكن الاكتفاء بربع القمر أو ثلاثة أرباعه.

وهذه التواريخ هي جانب آخر مثير للاهتمام في طقوس الشمسي. وتؤكد الافتراض العام، أي أن التقويم السبئي (الحميري) كان شمسياً وليس قمرياً. لا أود الخوض هنا في مشاكل التقويم الحميري. سيرجنت (والذي أدين له بتعليقاته حول هذه النقطة) يتفق معي أن السنة الحميرية تبدأ في أكتوبر، بينما بيستون يقول في مايو، وروبان يراها في أبريل. لدي عدد لا بأس به من الملاحظات بشأن التقويم الشعبي، وأعتقد أنه كان يوجد عامان جديدان في مناطق مختلفة من اليمن، ولكن لا يمكنني الإسهاب في توضيح ذلك هنا.

أكثر الأمور غرابة بشأن هذا التاريخ أنه يأتي في الوقت الأكثر أهمية من وجهة نظر مقارنة. ولقد رأينا أن تعبير "في راس السنة" يعني في الواقع "بداية العام"، لكن تاريخ السنة الجديدة الحقيقي ليس اليوم الأول من شهرهم، بل هو اليوم الذي يظهر فيه القمر بدراً، أي الخامس عشر. هذا بالضبط ما يقوله الكتاب المقدس عندما يتحدث عن عيد المَظالّ أو العُرش (Tabernacle): " فِي نِهَايَةِ السَّنَةِ" [سفر الخروج ٢٣: ١٦]، "فِي الْيَوْمِ الْخَامِسَ عَشَرَ مِنْ هذَا الشَّهْرِ السَّابِعِ" [سفر اللاويين ٢٣: ٣٤]، "عِنْدَمَا تَجْمَعُ مِنْ بَيْدَرِكَ" [سفر التثنية ١٦: ١٣]، "فِي آخِرِ السَّنَةِ" [سفر الخروج ٣٤: ٢٢].

لقد مُلئت المكتبات بمحاولات علماء اللاهوت للتوفيق بين التاريخَين، ("آخِرِ السَّنَةِ" أي اليوم الاول من الشهر، واليوم الخامس عشر من ذلك الشهر. يتم تفسير "الشَّهْرِ السَّابِعِ" بسهولة على أنه الشهر الأول من الفصل الثاني، أو خلال الاعتدال في العام الجديد من الخريف إلى الربيع). ومن خلال الظاهرة المطابقة لذلك هنا في جنوب الجزيرة العربية، يتضح لنا عدم وجود تناقض في تلك التواريخ، بشرط أن نفهمها بعيداً عن طريقتنا الرياضية، بل على الطريقة المُراد إيصالها.

نعود الآن إلى اليمن ونشير بإيجاز إلى ملاحظتين إثنويتين أخريين تتعلقان بطقوس الشمسي.

أظهر سيرجنت في ورقته الهامة "أنبياء ما قبل الإسلام في حضرموت" أن الحج السنوي الكبير في حضرموت المكرس للنبي هود، هو طقس سابق على الإسلام في الأصل، ويتضمن تقديم عروس للنبي. يقول سيرجنت " إن تقديم عروس وحفل زواج للنبي هود.. يذكرنا بديانة الساميين القديمة، وربما يشير إلى احتفالات مُـعَـرقَـلة، لكن ذكراها مكرسة في هذه المظاهر الغريبة".

ثمة توازٍ آخر ذكره مايرز Myers عام ١٩٤٧، واستشعر بوضوح وجود المزيد من الأمور وراء ملاحظاته. لقد وصف شيطانة أنثى "المَعَجيز" وهي أهم جنية في عدن الصغرى (البُـرَيـقَة حالياً) قام أحد الصيادين بتثبيتها على شجرة، وكان لها زوج يدعى "مُشَيبَه" (في المُلحق أشار مايرز أن اسمه ربما يكون "ام-شيبة") أيضاً مثبت على شجرة. وفي الزيارة السنوية يتم نصب عمودين لهما، وقيل إن ثيابهما هي فوطة وعمامة. وتكون الزيارة في ليلة اكتمال القمر في الشتاء. وتجدر الإشارة هنا إلى ال التعريف، هي "أم" في معظم أجزاء جنوب غرب اليمن. وتشيع "أم" في بلاد الصُـبَّـيـحَة، والتي تنتمي لها عدن الصغرى (البريقة). وكثيراً ما تُـدمج "أم" في الأسماء التي تليها. وعليه فإن أسماء الشيطانين ليست سوى "أم-عجوز" و"أم-شيبة". وبالتالي فإن احتفال عدن الصغرى مطابق بشكل واضح لطقوس الشمسي.

لا يمكنني خلال هذه الورقة المحدودة أن أناقش جميع الآراء، والتي ناقشتها في كتابي (*Ursemitische Religion*) ولكن لكي نوازن بين الأشكال الرئيسية الكبرى للطقوس الإثنولوجية الثلاثة، مع مجمع الآلهة الثلاثي

السبئي القديم، أي: إيلمقه (والذي يجب ترجمته الآن "إيـلِـمُـقَـهُ" بالتأكيد، الإله الذي يمنح المياه) وعَثتر، والشمس الأنثى المسماة "شمس". إيل سيكون هو الشيطان الأزلي في الجبال، وعثتر هو البطل الشاب، بينما "شمس" هي العروس. أسماء هذه المعبودات معروفة لدينا، ويمكننا الآن ربطها بالأسطورة.

لقد تمكنت من إظهار شكل الأسطورة الأصلي على النحو التالي:

يقوم "إيل" بحبس المياه مالم تقدم له عروس. فيأتي عثتر من بعيد (من الشرق)[١] فيقتل "إيل" ويتزوج "شمس" ويستقر عند أهلها (Matrilocal marriage). يحدث ذلك في ليلة اكتمال القمر في الربيع، في مرحلة لاحقة، تتحول الأسطورة بالكامل نحو اكتمال القمر في الاعتدال الخريفي، وتركز بشكل أكبر على توفير مياه المطر، فيتحوّل البطل الشاب (القادم من الغرب) فيتخذ صورة الفتاة (يصبح هو الشمس) بينما تميل هي إلى أن تتخذ صورة شريك حرب حقيقي، عثتر الأنثى. أما إقامة الزوج عند الزوجة فهو أمر ثابت. ونحن الآن في المرحلة الثانية من الخريف، حيث نشاهد احتفال الشمسي.

يعتبر نظام الزواج بإقامة الزوج عند زوجته (Matrilocal marriage) الجانب الأكثر روعة في احتفال الشمسي. لأنه بالطبع ليس نظاماً عربياً، ومع ذلك يمكننا تتبعه بملاحظات إثنوغرافية دقيقة في المهرة، وفي حضرموت، وفي الجوف من اليمن الشمالي، وفي قصة الشمسي، ويمكن الإشارة إلى ذلك في ديانة السبئيين القدماء. نجد هذه الصيغة في عبارة "ذات حميم عثتر يهجر" في النقش Ja 618[٢]. والجذر جار وجدناه عند الشمسي، ووجد أيضاً في النقوش القتبانية، في الفعل "يجور". والصيغة هذه في السبئية

[١] يُلمح الكاتب هنا إلى لقب الإله عثتر في النقوش (عثتر شرقن) أي عثتر الشارق. (المُترجم).
[٢] العبارة الأصلية في النقش هي "ذت حميم عثتريجر" وهي آخر عبارة في النقش (المترجم).

والقتبانية تعني (ذات حميم، أي الشمس، دخلها عثتر) أو (الشمس التي دخلها عثتر). تتمثل صعوبة الترجمة بعدم معرفتنا للعلاقة الأسطورية بين الآلهة. ماريا هوفنر Maria Höfner فضلت ترجمتها "هجمات" Attacks ولكن يبدو الآن أن الترجمة الأنسب هي "دخل" (تقابل العبرية بوء) وهو التعبير السامي المشترك للزواج (الباءة).

مؤخراً قُدِمت لي ملاحظة تفيد أن بيستون أثبت قبل فترة قصيرة أن نظام الزواج بإقامة الزوج عند زوجته Uxorilocal marriage كان شائعاً إن لم يكن هو الأصل في المجتمع السبئي. لذلك يمكننا القول إن هذا النوع من الزواج كان تقليداً عن السبئيين القدماء، وأنهم تخيلوا زواج آلهتهم على طريقته، وأعادوا تمثيله من خلال طقوس زواج مقدس سنوي بين الزوجين، وما يزال بإمكاننا رؤية هذا الاحتفال يُمارس في دير الخدامة.

إذن فمعنى احتفالنا اليمني في تهامة أصبح واضحاً الآن: هو تمثيل سنوي لحدث عظيم كان يتم في عصور ما قبل التاريخ (illo tempore)، يؤمّن الخصب للأرض والنسل. العمودان هما الشمسي وعروسه (على عكس كلام القيّم)، وقُدمت العروس مقابل المياه (مياه الوادي أو البئر)، وغَسلُ العمودين في مراسم الزواج يطابق مراسم الزواج السارية حالياً في "يوم الغسل" و"يوم الحناء"، والوليمة هي وليمة العرس. ولكن كيف تم تمثيل قتل الإله "إيل"؟ في كلمة سِرو؟! سرو في السبئية تعني "سرية قتال" تقابل العربية "سرى" (ذهب ليلاً، هاجم العدو ليلاً). في كتابي (*Märchen*) يوصف ذهاب البطل الذي يأتي بالعروس من الشيطان بتعبير: "يا ساري الليل".

إذا أردنا ترجمة هذه الطقوس في شكل هندسة المعبد، فينبغي أن نتوقع العثور على حوض ماء وعمودين في المعابد السبئية. وإذا تمعنا بقراءة المسح الأولي الذي أجراه شميدت J. Schmidt في مأرب، فإننا نجد ذلك بالفعل (ص٧٥، ١٣٧، ١٥٤). وهذا يذكرنا بالطبع بـ"بحر البرونز" والأعمدة البرونزية في [سفر الملوك الأول: ٧: ١٥-٢٦] في هيكل سليمان، والذي شكلت أهميته لغزاً للمفسرين.

عندما سمعت عن الشمسي لأول مرة، شعرت بالحزن أنني لم أكن أعرفه من قبل ولم أضمنه في الجزء الأول من كتابي (*Ursemitische Religion*)، والذي خصصته لـ "إعادة اكتشاف الديانة السبئية القديمة". من ناحية أخرى، لا يعد مخيباً للأمل اكتشاف مثل هذا الدليل الكامل، فالأطروحة الآن تستند على مجموعة من الاستنتاجات.

ومما يستحق الذكر أن احتفال السبئيين هذا يلقي ضوءًا جديداً على الاحتفالين الجاهليين في مكة (العمرة في مكة، والحج في عرفة). لطالما تساءل الباحثون عن سبب بناء الكعبة في وادي مكة (في "بطن مكة"). قصة الكعبة هي قصة الفيضانات المدمرة، والآن أصبحنا نعرف السبب. وكذلك أصبح من الواضح أن باستطاعتنا فهم المعنى الحقيقي لكلمة "عُمرة" في مكة نفسها، بالمعنى الذي تعرضه لنا المعاجم (وأعْمَرَهُ: أن يَبْنِيَ الرَّجُلُ على امرأتِهِ في أهْلِها[١]) أي نظام الزواج الأمومي بالإقامة عند الزوجة (Matrilocal marriage)، عكس العُرس الأبوي (Patrilocal). يتطابق الحج والعمرة في عدة جوانب -بما في ذلك التاريخ وحتى الاسم- مع العيدين العبريين القديمين، عيد الفِصح وعيد المَظالّ (الحج). يبدو مدهشاً كيف أننا يمكن أن نُفسّر العيدين

[١] إضافة من المترجم، نقلاً عن القاموس المحيط، ص٤٤٥.

التوراتيين عبر جنوب الجزيرة العربية، ليست مسألة أصل، فهو شمالي بالطبع، ولكن مسألة التفسير، وكذلك تفسير عيد مكة.

مُلحق:

أنا ممتن للبروفسور سيرجنت على لفت انتباهي إلى موازٍ مهم جداً أورده الأزرقي عن كنيسة صنعاء (القليص) التي بناها الحاكم الحبشي (أبرهة). يمكن العودة للنص عند سيرجنت وليكوك، صنعاء لندن، ص٤٦: "وَكَانَ فِي الْقُبَّةِ أَوْ فِي الْبَيْتِ خَشَبَةُ سَاجٍ مَنْقُوشَةٌ، طُولُهَا سِتُّونَ ذِرَاعًا، يُقَالُ لَهَا كُعَيْبٌ، وَخَشَبَةٌ مِنْ سَاجٍ نَحْوُهَا فِي الطُّوَلِ، يُقَالُ لَهَا امْرَأَةُ كُعَيْبٍ، كَانُوا يَتَبَرَّكُونَ بِهِمَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ". هل وصف" طُولُهَا سِتُّونَ ذِرَاعًا" يقصد الأرتفاع؟ وبحسب الرواية أنهم عند تدمير الكنيسة كانوا يخافون هذه العمود "كُعَيْبٍ" (فَلَمْ يَقْرَبْهَا أَحَدٌ مَخَافَةً لِمَا كَانَ أَهْلُ الْيَمَنِ يَقُولُونَ فِيهَا[١]). يبدو ذلك شبيهاً جداً بوضع الشمسي في بيت الخدامة.

الأمر كذلك بالفعل، إن هذا النص يثبت حقاً كون طقس الشمسي سابقاً على الإسلام، وأنه قد بدأ في مكان مرتفع في العاصمة، ولعله أحد الطقوس الأساسية في الدين القديم. وهل يسعنا أن نعدها من قبيل المصادفة أن كلمة كُعَيْبٍ تستدعي فكرة الخصوبة (الصدر الصغير)، واسم الحرم في مكة، وأخيراً اسم الوادي "شِعب الكَعاب" على "جبل العَود" والذي كان بدوره حرماً عظيماً للمكاربة وملوك سبأ، حيث مارسوا (برأيي) زواجهم المقدس السنوي (*Hieros gamos*)، وكلمة مُكَرِّب أشتقت من هكربَ= تزوج امرأة زواجاً أمومياً (Matrilocal marriage)؟

[١] إضافة من المترجم، نقلاً عن أخبار مكة للأزرقي، ١٤١/١.

يقترح سيرجنت أصلاً آخر لكلمة سِرو، والتي بدا لي أصلها المعروض في هذه الورقة مقنعاً، يقول: إن كلمة سِرو قد تكون الواو في آخرها من لهجة تهامة، كما في "بيتو" بمعنى بيت. قد يكون ذلك من قبيل المصادفة فحسب، ولكن سارية (سواري) تعني عمود وقد تعني أيضاً سارية المَركِب.

ثمة موازٍ آخر استرعى انتباهي إليه البروفسور سيرجنت، عند ابن الكلبي في كتابه (الأصنام) ذكر مرتين صنميّ إساف ونائلة، اللذان كانا بجانب الكعبة. وقيل "أَنَّ إِسَافًا وَنَائِلَةَ رَجُلٌ مِنْ جُرْهُمٍ وَكَانَ يَتَعَشَّقُهَا فِي أَرْضِ الْيَمَنِ فَأَقْبَلُوا حُجَّاجًا فَدَخَلا الْكَعْبَةَ فَوَجَدَا غَفْلَةً مِنَ النَّاس وخلوة فِي الْبَيْتِ فَفَجَرَ بِهَا فِي الْبَيْتِ فَمُسِخَا فَأَصْبَحُوا فوجدوهما مسخين فأخرجوهما فوضعوهما موضعهما فعبدتهما خُزَاعَة وَقُرَيْشٌ وَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ بَعْدُ مِنَ الْعَرَبِ"، ويذكر الكلبي أيضاً أنهما "وُضِعَا عِنْدَ الْكَعْبَةِ لِيَتَّعِظَ النَّاسُ بِهِمَا... فَكَانُوا يَنْحَرُونَ وَيَذْبَحُونَ عِنْدَهُمَا".

إذا حيدنا التفسير الأخلاقي جانباً، فإن الحقائق تتناسب تماماً مع ما قيل في هذه الورقة. الكعبة هي أحد معابد دين العرب القدماء المبني على الماء والخصب. وكان العمل الرئيسي هناك هو الزواج المقدس ويتم في المعبد، في الليل. وبالمناسبة فقد كان جلازر Glaser أول من شرح الاسم البطلمي الغريب لمكة "ماكوربا" (Makoraba) بمعبد سبأ المَكرَب أو المِكرَب. بل إنني أخطو خطوة أبعد بالقول إن المَكرَب يجب أن يكون هو المكان الذي يقوم فيه المُكَرِّب بعمله السنوي العظيم، أي الزواج المقدس. ويبدو أنه لم يعد من المستغرب أن يستمر هذا التمثيل التعبّدي في مكة، كما استمر في كنيسة صنعاء، وفي دير الخدامة.

قائمة المراجع:

- Beeston. A.F.L., "Women in Saba", *Arabian and Islamic Studies,* Festschrift R.B. Serjeant. London 1983, 7-13.
- Daum. Werner, *Märchen aus dem Jemen,* Koln, 1983.
- Daum, Werner, *Vrsemitische Religion.* Stuttgart. 1985.
- Henninger, Joseph. *Les fêtes de printemps chez les Sémites et la Pâque Israélite,* Paris. 1975.
- Höfner, Maria. "Die vorislamischen Religionen Arabiens", in Hartmut Gese. Maria Höfner, Rudolph **Kurt (edd.),** *Die Religionen Altsyriens, Altarabiens und der Mandäer,* Stuttgart, 1970.
- Myers. Oliver Humphrys. "Little Aden Folklore". *Bulletin de l'institut français d'archéologie orientale,* Le Caire. XLIV(1947). 177-233.
- Robin. Christian, "Le calendrier himyarite: Nouvelles suggestions". *Proceedings of the Seminar for Arabian Studies.* 11 (1981), 43-51.
- Schmidt, Jiirgen (ed), *Archäologische Berichte aus dem Yemen.* Band I, Mainz 1982.
- Serjeant. R.B., "Hud and other pre-islamic Prophets of Hadramawt", *Le Muséon* LXVII (1954). 121-179.
- Reprinted in: Serjeant, *R.B.. Studies in Arabian History and Civilisation,* London. 1981.
- Serjeant, R.B., "Heiligenverehrung in Südwestarabien", *Bustan* (Wien) 1964. II, 16-23.
- Stone, Francine (ed.). *Studies on the Tihamah,* London, 1985.
- Wensinck, A.J., "Arabic New-Year and the Feast of Tabernacles", *Verhandelingen der Koninklijke.*
- *Akademie van Wetenschappen te Amsterdam,* Afdeeling Letterkunde, Nieuwe Reeks. Deel XXV No. 2 (1925). 1-41.